الفصل الحادي عشر

السرقة

✍ **ينبغي أن ننبه من البداية إلي أنَّ السَّرِقة عند الطفل لها مدلول يختلف عن المدلول الذي لدينا نحن الكبار؛فالسَّرِقة لدينا عمل مستهجن ومُشين،يتنافي بطبيعة الحال مع القيم والمعايير الأخلاقيَّة،ولذا نستطيع أن نتصوَّر مدي انزعاج الآباء والأمَّهات،عندما ترسل إليهم المدرسة مُشيرة إلي أن أطفالهم قد ضبطوا متلبسين بالسَّرِقة.بالطبع سوف نراهم وهم في غاية التوتُّر والضيق والغضب،وهو الأمر الذي قد لا يحدث إذا قيل لهم أن أطفالكم كسالي،أو متراجعون علمياً أو دراسياً.ذلك لأنَّ الآباء والأمَّهات لا يعتبرون أنَّهم قد فشلوا في تعليم أطفالهم قواعد العلم وأسس المعرفة والثقافة فحسب،بل أخفقوا أيضاً في تهذيبهم وتقويمهم،وأنَّ أطفالهم باتوا يواجهون مستقبلاً متردِّياً.**

وحقيق الأمر،التي تؤكِّدها معظم الدراسات السيكولوجيَّة (النفسيَّة)،أنَّ هناك أنواعاً من السَّرِقة يأتيها الطفل بدوافع بعيدة كُلّ البُعد عن دوافع السَّرِقة في مدلولها السالب المُهين،الذي لدينا نحن الكبار،فقد يسرق الطفل لأنَّه لا يُدرك معني الملكية،أي ملكيته الخاصَّة،والملكية العامَّة.والأجدر بنا والأصح أن نهتم ببحث واستقصاء الدوافع والأسباب، التي أدت إلي سلوك أو تصرُّف السَّرِقة قدر الاهتمام بالواقعة نفسها.

❁ دوافع السَّرِقة وأسبابها:

إنَّ نقطة الانطلاق الحقيقية للقضاء علي أيَّة مشكلة من المشكلات هي محاولة الكشف عن الأسباب والدوافع التي أدت إلي ظهور مثل هذه المشكلة،عندها يمكن أن نضع أيدينا علي مكمن الخطر،وبالتالي يسهل درئه أو مُعالجته.لهذا سوف نستعرض 12 سبباً متنوعاً جميعهم يؤدون إلي ظهور المشكلة السَّرِقة.

♦ أوَّلاً: الجهل بمعني الملكية:

إنَّ غريزة الاقتناء أو الامتلاك هي غريزة قوَّية في كثير من الأطفال،إلي أنْ يتعلَّموا بخبرتهم أنَّ كثيراً من الأشياء مُحرَّمة عليهم،أي لا يجوز لهم امتلاكها،غير أن الخوف من العقاب في بداية حياة الطفل هو العامل الوحيد الذي يَرْدَعهُ عن السَّرِقة.

وعندما يمدُّ الطفلُ يده ليستولي علي ممتلكات غيره،إنَّما يمدُّها لأنَّه يرغب في استخدام تلك الممتلكات،لا ليسرقها ـ كما نتصوَّر نحن الكبار ـ فهو يجهل تماماً معني أن يحترم ملكية الآخرين، فنموُّهُ لم يُمكِّنه بعد من التمييز بين ممتلكاته وممتلكات الآخرين.وهو أيضاً لا يُدرك كذلك أنَّ احترام ملكيَّة الآخرين تعني ألَّا يحصل عليها،أو يستخدمها،أو يلعب بها،إلَّا بإذن من أصحابها وإلا أُعتبر الأمر اعتداءً علي حقوقهم.

وقد يُنبِّه الأبُ أو الأمُّ إلي ذلك بالزَّجْر تارة،وبالعقاب تارة أخري،ولكن لا يفتأ الطفل أن يُعاود ما فعله مرَّة أخري؛ذلك لأنَّ المعني لم يرسخ ـ بعد ـ في ذهنه ووجدانه.إنَّه بالقطع لا يتصوَّر أنَّه فعل أمراً مذموماً مُحرَّماً لا يليق.

ومثل هذا الطفل لا يمكننا بحالٍ من الأحوال أن نعتبره (سَّارقاً)،ويكفي،لكي نعودِّه علي سلوك الأمانة أن ننمي فكرته عن الملكية الخاصَّة،والملكية العامَّة،وذلك بأن نخصِّص له أدوات خاصَّة يتناول بها طعامه،وأخري يستخدمها في الاعتناء بأمور نظافته الشخصيَّة،وأن نخصِّص له كذلك اللُّعب والكتب والأدوات التي يحتفظ بها في مكان يخصُّه وحده،في الوقت الذي نطالبه بضرورة الحفاظ عليها من التَّلف،والعناية بها وعدم إهدارها أو فقدها وضياعها.

♦ **ثانياً: الحرمان والحاجة لسدِّ الرَّمق:**

قد يسرق الطفل ليسدُّ الرَّمق ويُشبع دافع الجوع لديه،وتكون السَّرِقة هنا منصبَّة إمَّا علي نوعٍ من أنواع الطعام،أو علي النقود التي ينفقها لشرائه.وهذا النوع من السَّرِقة نادر الحدوث،ويكاد يكون مشكلة اجتماعيَّة أكثر منه مشكلة نفسيَّة،أي أن هذه السَّرِقة تدخل في نطاق المهتمين بالإصلاحات المجتمعية،وسيادة مبدأ العدالة الاجتماعيَّة،وإصلاح نظام العمل والأجور،وتوزيع ثروات المجتمع بما يُحقق مبدأ الكرامة الإنسانية،أكثر ممَّا تدخل في نطاق المهتمين بالدراسات أو المشكلات السلوكيَّة والنفسيَّة.

وننوه بأنَّ الحرمان الذي يصل إلي هذا الحدّ يترتب عليه ـ للأسف الشديد ـ آثار نفسيَّة غاية في السوء،قد يكون من الصَّعب علاجها أو حتى التخفُّف من آثارها بسهولةٍ.

♦ **ثالثاً: الغيرة وحُبّ الانتقام:**

الطفل قد يسرق في المواقف التي تُثار فيها غيرته الشديدة،فقد يسرق من والديه إذا وجد أنَّهما انصرفا عنه وأهملا شؤونه،والسَّرِقة هنا انتقاميَّة كردِّ فعل لتجاهُل الوالدين له هذا من ناحيةٍ،ومن ناحيةٍ أخري قد تكون السَّرِقة نوعاً من التنفيس عن الغضب أو الغيظ المكبوت،ولذا فقد تكون الأشياء المسروقة من أشياء أو ممتلكات الوالدين،وقد لا تكون،فقد يلجأ الطفل إلي سرقة زميل له يشعر تجاهه بالضيق أو الغيرة،ولا يستطيع مواجهته أو مصارحته فيسرق أدواته،وقد يُحطمها لأنَّه يسرق بدافع الانتقام أو التشفِّي.

♦ **رابعاً: الرَّغبة في الامتلاك:**

قد يسرق الطفل شيئاً لأنَّ لديه رغبة مُلِحَّة في استخدام أو امتلاك الشئ المسروق،إذا وجد الطفل بحوزة صديقه لُعبة أعجبته،في الوقت الذي لا يمتلك مثلها،فقد يُفكِّر ملِيَّاً في سرقتها واستخدامها في خفيةٍ تامةٍ ليستمتع بلذة ملكيتها،ونشوة استعمالها.وفي هذه الحالة لا يسرق الطفل إلَّا ما يروق له من أشياء أو ممتلكات،وفي بعض الحالات يُعيد الطفل الشئ المسروق خفية أيضاً بعد أن يكون قد استخدمه وحقَّق رغبته،ولم يعد لهذا الشئ المسروق الجاذبيَّة بالنسبة له.

ومن هنا يتحتم علي الآباء والأمَّهات توفير الأدوات أو المقتنيات أو اللُّعب،التي تروق أطفالهم،وتجذب أبصارهم قدر الإمكان،حتى لا يلجأون إلي السَّرِقة بدافع الرَّغبة في الامتلاك.

♦ **خامساً: التخلُّص من المآزق :**

كثيرٌ من الأطفال يسرقون ليتخلَّصوا من مآزق قد يمرُّون بها،فقد يقسو المُعلِّم علي أحد تلاميذه بالتأنيب أو التوبيخ،كُلَّما أخفق في أداء واجباته،أو في عدم سرعة تلبيته لفهم الدروس،ممَّا يُسبِّب له مآزق سيئة غير مستحبة،كأن يتهكَّم منه أقرانه،فيحاول الطفل الخروج من تلك المآزق بشراء بعض الهدايا،التي يُقدِّمها إلي المُعلِّم علَّها تخفف من حدَّة التأنيب أو التوبيخ،وإذا لم يجد الطفل المال الكافي لشرائها فإنَّه يلجأ إلي السَّرقة،متمثلة إمَّا في سرقة إحدى مقتنيات أبيه ليُقدِّمها هدية للمُعلِّم،أو يسرق بعض المال ليبتاعها.وقد تجد هذه السَّرقة تشجيعاً ورواجاً إذا تقبلها المُعلِّم شاكراً ممتناً،ثُمَّ راح يتغاضي عن تقصيره الدراسي.وقد يبدو هذا الأمر عجيباً وغريباً،ولكنه بالفعل يحدث.

لذلك..ننصح المُعلِّمين والمُعلِّمات بعدم قبول مثل هذه الهدايا من الصِّغار أو الكبار علي حدٍ سواء،لا سيما إذا كانت تلك الهدايا باهظة الثمن،عالية القيمة،الأمر الذي يجعلنا نتشكَّك في طريقة أو وسيلة الحصول عليها،وأيضاً حتى لا تكون مثل هذه الهدايا نوعاً من الرِّشوة المهذبة التي سرعان ما تتأصَّل في تصرُّفات الأطفال كسلوكٍ محمودٍ،كُلَّما وقعوا في مآزق مشابهة في حياتهم العمليَّة بعد ذلك.

♦ **سادساً: الخوف من العقاب وتداعياته :**

يحدث أن نجد طفلاً قد أضاع مثلاً عُلبة ألوانه بالمدرسة،وهذا أمر وارد تماماً،فيذهب إلي البيت يشكو لأبويه،حتى يُمْكنه الحصول علي النقود ليبتاع عُلبة أخري،فيأبي ويرفض والداه أن يأتياه بمثلها،ولا يتوقف الأمر عند هذا الحدِّ،بل يُهدِّدانه بالعقاب الصارم إذا لم يجد عُلبة ألوانه المفقودة؛ فيفكِّر الطفل في سرقة النقود اللَّازمة لشراء عُلبة الألوان؛اتقاء العقاب المُزمع تنفيذه.وبعد أن يبتاع مثلها،يهمُّ الطفل إلي والديه فرحاً ويخبرهم بأنَّه وجد عُلبة ألوانه مختبئة في دولاب ملابسه.وعندما يقتنع الوالدان بذلك،يزول بالتالي خطر التهديد والعقاب،ويستنشق الطفل عبير الأمن والاطمئنان، ولكن بعد أن يتعلَّم الكذب ثُمَّ السَّرقة في آنٍ واحدٍ !!

لذا..نحن نُحذِّر الآباء من شدَّة العقاب إذا ما فقد الصِّغار أدواتهم أو ممتلكاتهم،لأنَّ هذه الأمور تُعدُّ مسلكاً طبيعياً يحدث لكُلِّ الصِّغار،بل والكبار أيضاً،والواجب علي الآباء أمْ يوجِّهوا أطفالهم بنوعٍ من المودَّة والحُبِّ متغاضين عن العقاب لأوَّل مرَّةٍ،فيهمُّوا بتلبية مطالبهم بمنحهم البديل،أمَّا إذا تكرَّر الموقف نفسه مرَّة أخري،فليتعرفوا علي الأسباب التي تؤدي إلي تكرار هذه الظَّاهرة،فقد يكون الطفل ضعيف الذاكرة،أو سريع السَّهو والنسيان،أو أنَّ هناك في المدرسة أطفالاً اعتادوا سرقة مثْل هذه الأشياء أو الأدوات.

ونؤكِّد من جديد،أنَّ الخوف من العقاب لاسيما إذا كان عقاباً مُهيناً قاسياً يدفع الأطفال الصِّغار دائماً أبداً إلي الإتيان بكافة الأساليب السلوكيَّة الشَّاذة والسيِّئة كالسَّرقة أو الكذب.

♦ **سابعاً: التفاخر والمباهاة :**

يُعاني بعض الأطفال الحرمان من امتلاك الأدوات واللُّعب التي تروقهم،ويعجبون بها،إمَّا لضيق ذات اليد،وإمَّا لسوء تقدير الأبوين بشأن توفير ما يحتاجه أطفالهم من أدواتٍ ولُعبٍ،ثُمَّ يذهب الطفل إلي المدرسة،أو إلي النادي فيروِّعه الأمر ويؤرقُّه؛لأنَّه يري بحوزة أصدقائه أو أقرانه العديد من هذه الممتلكات أو اللُّعب،وممَّا يزيد الأمر سوءاً أن يجد من رفاقه المباهاة والتفاخر بما يملكون،والسَّعادة العامرة بما ينعمون.فتدبُّ الغيرة في قلبه،ويترسَّخ بداخله الشعور بالنقص لفقده الأمل في اقتناء مثل هذه الأدوات أو اللُّعب،والنتيجة المتوقَّعة هي أن الطفل يُفكِّر ملياً في الأمر فلا يجد سوي السَّرقة مفراً ومخرجاً؛فيهمُّ بسرقة مثل هذه الأشياء من أصدقائه أو أقرانه ليلهو بها ويتمتَّع بصحبتها،وعندما يسأله أبواه عن مصدر هذه الأشياء،فإنَّه يدَّعي أنَّ أصدقائه أهدوه إيَّاها،وقد يجنح بخياله الخصب فيدَّعي أنَّه فاز في إحدى المسابقات المدرسيَّة فكافأته إدارتها بأنْ منحته أو أعطته هذه الهدايا !!

أو لعلّ الطفل يسرق النقود ويشتري هذه اللُّعب ويحتفظ بها بعيداً عن الأنظار،حتى يتحيَّن موعد ذهابه للمدرسة فيضع هذه اللُّعب أو بعضها في حقيبته المدرسيَّة ليتمكَّن من التباهي والتفاخر بها أمام أقرانه،مدعياً أيضاً أنَّ والديه قد ابتاعاها له.

ولا شكّ أنَّ هذا الطفل المسكين يُعاني من شعور شديد بالنَّقص،ويشعر دائماً بأنَّه دون مستوي أقرانه،لذلك علي الأبوين توفير ما يمكنهم توفيره من تلك الأدوات واللُّعب،وهذه ليست معضلة علي الإطلاق،فهناك من اللُّعب والأدوات ما يستلفت النظر،ويأخذ بالعقول لجمال ألوانها وبديع صنعها مع كونها زهيدة الثمن،إذا ما قُورِنت بما ينفقه الآباء علي شراء السجائر،أو الجلوس علي المقاهي مثلاً،كما أنَّ الأُمَّ إذا وضعت هذه الغاية نُصْبَ أعينها لأمكنها أنْ تقتصد ممَّا تنفقه علي زينتها وملبسها،فتوفِّر الشئ المعقول الذي تنفقه لشراء ما يحتاجه أطفالها؛حتى لا يضطروا - بدافع التباهي والتفاخر - إلي السَّرقة.

♦ **ثامناً: التقليد والمُحاكاة :**

يتابع معظم الأطفال باهتمام شديدٍ كُلُّ ما يجري في عالم الكبار،فنجد الطفل يستمع لأقوال والده ويُحاول فهمها وتَرديدها وقد يتحمَّس لها.والفتاة تبدأ في الاهتمام بما تُردِّده الأمُّ فتتابع أحاديثها بإنصاتٍ شديدٍ،هذه السِّمات من شأنها أنْ تؤثر علي الطفل،فهو علي استعدادٍ دائم للوقوع تحت تأثير الآخرين،وهي ما يُطلق عليها علماء النفس« القابلية الشديدة للاستهواء»، بحيث يكون الطفل علي استعدادٍ للتأثُّر بما يسمعه أو يُشاهده، خاصَّةً ممَّا يكبرونه سناً،ويشغلون أدواراً مهمةً بالمنسبة له مثل الأب أو الأمّ،بحيث أنَّه يمكن أن يُغيِّر من آرائه،ويُعدِّل من اتجاهاته حسب رغبات واتجاهات هذا الآخر،ويتضح أن الطفل في تلك المواقف إنَّما يقوم بعملة توحُّد مع نموذج مُعيَّن،والنموذج هو الشخص الذي يتأثَّر به،وبهذا يميل الطفل إلي التقليد والمحاكاة،فهو عن طريقهما يستطيع أن يُشكِّل سلوكه ويكوِّن معتقداته ومُثُله العُليا وقيمه،وقد يحدث أن تمتد يدُّ الأمّ إلي حافظة نقود

زوجها لتستولي في - تكتُّم وسريَّة - علي بعض النقود،فيراها الطفل دون أن تشعر بوجوده،ثُمَّ يأتي الأب ليكتشف الأمر فيثور،والأمُّ بالقطع تتنصَّل من المسؤولية،أمَّا الطفل فإنَّ عقله يذهب ويجئ،يُحاول أن يتصوَّر ويستنتج،وغالباً ما يسأل نفسه:هل أظل صامتاً أحتفظ بالحقيقة لنفسي ؟ أم أروي ما رأيت فأكشف أمر أُمي فيدبُّ الصدام بينهما،ثُمَّ أنال العقاب من أُمي بعد ذلك ؟

ومهما يكن موقف الطفل من هذه الواقعة،فقد تأثَّر تأثُّراً سلبيّاً سيئاً بفعلة أُمّه (النموذج والقدوة)، والأرجح أنَّه سيُغيِّر من قيمه التي اكتسبها،ويُعدِّل من اتجاهاته التي سبق له وتبنَّاها،وبمرور الوقت لا يسأل الطفل والده عمَّا يُريده من نقود،بل ستمتدُّ يداه إلي حافظته ليأخذ منها ما يُعينه علي الإنفاق،ثُمَّ تمتدُّ يداه أيضاً إلي حقيبة والدته ليسلب منها ما يبغي،وهكذا يصبح الطفل محترفاً للسَّرِقة لا لشيءٍ،وإنَّما لأنَّ القدوة والنموذج قد رآها مُتلبِّسة بالسَّرِقة فيتوحَّد ويُقلِّد ويُحاكي.

♦ تاسعاً: أصدقاء السُّوء :

الطفل تتسع دائرته الاجتماعيَّة،ويتمثَّل ذلك في وجود أصدقاء له يذهب ويجئ معهم،من وإلي المدرسة،ويقضي بصحبتهم فترات الرَّاحة والاسترخاء.والطفل يجد نفسه مشدوداً إلي أصدقائه يُبدي ولاءً وإخلاصاً لهم،ويكون علي استعداد للتضحية في سبيلهم بكُلّ ما يملك،ويكون سعيداً وهو يفعل ذلك.

وحينما لا يتدخَّل الأبُ أو الأمُّ في انتقاء الأصدقاء..فقد ينحرف الطفل ويسوء الاختيار، فهذا طفل تعرَّف بصديق يقطن إلي جواره في المسكن،يكبره بعدة سنوات،كان يرافقه في رحلاتٍ قصيرةٍ في أيام العطلات الأسبوعية،ولسوء الحظ كان هذا الصديق منحرفاً سلوكياً،إذ كان مُعتاد السَّرِقة،ولمَّا كان الطفل يقع تحت تأثيره،وكان الأبوان في غفلةٍ عن ابنهما..فقد انتهت هذه الصداقة باشتراكهما في سرقة النقود وبعض الأشياء الأخرى،لقد وجد الصَّغير في هذا السلوك متعة في إثبات ذاته وقدراته،كما وجد لذَّة في الجرأة والشجاعة التي تصاحب السَّرِقة.

إنَّ أصدقاء السُّوء أخطر ما يكون علي الأطفال الصِّغار،وقد كان بإمكان الأبوين توجيه مثل هذا الطفل؛لإثبات وجوده وذاتيّته وقدراته في اتجاهاتٍ إيجابيَّةٍ كثيرة،تُفيده وتفيد المجتمع أيضاً،وكان من الضروري عليهما انتقاء أصدقائه الانتقاء الصحيح والملائم،ليس عن طريق القسر والعنف،بل عن طريق التفاهم والحوار المشترك.

♦ عاشراً: شغل وقت الفراغ وإشباع الميول :

يُظهر الطفل تقدُّماً اجتماعيّاً في لِعْبه،فبعد أن كان لِعْبه انعزالياً في سنتي المهد،فرديّاً في طفولته المبكِّرة،يُصبح لِعْبه في الطفولة المتأخِّرة جماعيّاً،فهو يُشارك في الألعاب الجماعيَّة بكُلِّ حماسٍ ودأبٍ،فمن اللَّعب الانعزالي الذي يلعب فيه دون أن يُشاركه أحد حتى يصل إلي مرحلة اللَّعب الجماعي،الذي يكاد ينتهي فيه وجوده كفردٍ مستقلٍ لحساب وجوده،إلي عضو في جماعةٍ تعمل لتحقيق هدف مشترك.إذاً الطفل يحتاج لشغل أوقات

فراغه في لعبٍ جماعي يضمه إلي أصدقائه وأقرانه.ويحدث أحياناً أن يعيش الطفل في جوٍّ عائليٍّ صارم،فيُمنع من مخالطة أقرانه إمعاناً في فرض الحماية،أو ادعاء الخوف خشية تعرُّضه للحوادث،التي قد تصيبه من جرَّاء ذلك،وحينما يهمُّ الطفل بسؤال والديه لأجل تلبية رغباته بمنحه بعض النقود،التي تمكنه من الذهاب إلي التنزُّه أو ارتياد مسارح أو ملاهي الأطفال فإنَّهما يرفضان،وقد لا يكون هذا الرفض من منطلق التقتير عليه بل لسوء التقدير،فهما يؤكِّدان أن وجوده في المنزل أدعي وأفضل لمَنْ في مثل عُمْره !! فيذعن الطفل لأوامرهما،ويمكث في المنزل دون شغل وقت فراغه بما يُشبع ميوله ورغباته،ولمَّا يضيق الطفل من هذه العزلة الصارمة،يضطرُّ في النهاية إلي سرقة بعض النقود،كُلَّما سنحت له الفرصة،فينفقها في مشاهدة عروض مسارح الأطفال،أو ارتياد الحدائق والمتنزهات،أو ركوب الدرَّاجات.

لذلك..فإنَّنا ننصح الآباء والأُمَّهات بإشراك أطفالهم في النزهات الخلويَّة،والأنشطة المدرسيَّة المختلفة كالرحلات،والمعسكرات،وارتياد مسارح وملاهي الأطفال،وأن يخصِّص الأبوان الفرص المواتية للذهاب مع أطفالهم وبصحبتهم إلي الحدائق،والمتاحف، والمعارض.. وغيرها.

هذا..وتظهر بدايات الميول عند كُلّ الأطفال ـ وإن كانت لا تعرف التخصُّص إلَّا مع نهاية مرحلة الطفولة المتأخرة وبداية مرحلة المراهقة ـ من أجل ذلك لابدّ من إتاحة الفرص لممارسة اكبر قدر من الأنشطة في كافَّة المجالات كالرسم،والتصوير،والقراءة الحُرَّة، والموسيقي،وجمع العُمْلات أو الطوابع البريدية التذكارية.والأمر الذي يدعونا إلي الدهشة والقلق معاً أنَّ بعضاً من الآباء لا يهتمُّ بتنمية الميول كجزءٍ أساس من تربية الطفل وتنشئته،علي اعتبار أن مزاولة هواية كالرَّسم مثلاً مدعاةٌ لمضيعة الوقت،وإنَّها من قبيل الترف ولا عائد يُرجي منها..كُلّ هذه الأمور تجعل الطفل يلجأ إمَّا إلي سَّرِقة النقود لشراء ما يروق له من ألوان،أو ليبتاع آلة موسيقية صغيرة،أو قد يلجأ في أحيان أخري إلي سرقة هذه الأدوات أو الآلات من بعض الأصدقاء أو الأقران،أو من حجرات التربية الفنيَّة أو الموسيقيَّة أو الرياضيَّة بالمدرسة،ولذلك فإنَّ السَّرِقة تكون بغرض إشباع الميول التي يُريد الطفل من خلالها أن يشغل بها وقت فراغه؛لذا ينبغي توفير مثل هذه الأدوات والآلات،التي تشبع ميول الأطفال وتشغل وقت فراغهم؛حتى لا يلجأون إلي مثل هذا النوع من السَّرِقة.

♦ حادي عشر: البيئة الإجراميَّة :

قد يعتاد الطفل السَّرِقة أحياناً،لأنَّه قد ينشأ في بيئةٍ إجراميَّةٍ عوَّدته السَّرِقة وشجَّعته علي الاعتداء علي الاعتداء علي ملكيَّة الغير؛خصوصاً حينما يشعر الطفل بنوعٍ من القوَّة والظفر وتقدير الذات (السلبي بالطبع)،لاسيما حينما يفلت من العقاب ! وممَّا يدعو للأسف أنَّ هذا السلوك الذي يكتنف الطفل في الصِغر،سرعان ما يتطوَّر ويتحوَّل إلي سلوكٍ إجراميٍّ في الكِبَر،لأنَّ البيئة المُحيطة به شجَّعته علي السَّرِقة.

ونودُّ أن نقول أنَّ الأطفال الصِّغار الذين يُضْبَطُون وهم يسرقون ثُمَّ يودعون مؤسَّسات رعاية الأحداث،إنَّما هم في الواقع أطفال يتمتَّع غالبيتهم بذكاءٍ وقدرات عقليَّة وبدنيَّة لا بأس بها،ومن هذه القدرات:سرعة حركة الأصابع،وخِفَّة الحركة،وارتفاع مُعدَّل اللياقة البدنيَّة بالمقارنة بأقرانهم،كما أنَّهم علي جانب كبير من دقة الملاحظة والاستنتاج،،كما يمتلكون اللباقة في الحديث والتظاهر بالأدب الجمِّ والميل إلي مساعدة الغير،وكُلُّها دون شكٍّ تجعل من عملية السَّرِقة أمراً ميسوراً.والملاحظ أنَّ هؤلاء السَّارقين الصِّغار إنَّما يسرقون دائماً تحت تأثير الكبار،أي أنَّهم يسرقون كأعضاء في منظمةٍ أو جماعةٍ،وقد يلجأ زعيمهم إلي تهديدهم بالضَّرب والعقاب أو الأذى،إذا امتنعوا عن تنفيذ أوامره،ومن ثمَّ يعتادون السَّرِقة ويحترفونها.

وقد أدلي بعض الأطفال نُزَلاء مؤسَّسات رعاية الأحداث ببعض الاعترافات التي تجعلنا تجاه مسؤولية خطيرة مُلقاة علي عاتقنا بشأن رعايتهم وتأهيلهم،فقد قال أحدهم:«لقد درَّبنا زعيمُنا علي استخدام الحِيَل تدريباً جيِّداً وطويلاً،وهذه الحِيَل تُساعدنا علي استدرار عطف ضحايانا تمهيداً لسَّرقتهم».

وقال طفل آخر:« إنَّنا تدرَّبنا طويلاً علي وسائل وطرق السَّرِقة خصوصاً في الأماكن العامَّة المزدحمة بالمارَّة،كذلك السَّطو علي المنازل والمحال التجارية ».

ونحن نري أنَّه لابدَّ من الاهتمام بالأطفال،نزلاء مؤسَّسات رعاية الأحداث،عن طريق الآتي:

* توفير سُبُل الرِّعاية والرَّاحة لهم،واحترام إنسانيتهم،وأن يُعاملوا علي أساس أنَّهم أطفال ضنَّت عليهم الحياة بسُبُل الحماية والأمان،فتَلَقَّفَتهم الأيدي الشرِّيرة وزرعت ما زرعت في نفوسهم من سرقةٍ وتسوُّلٍ،وعلي ذلك لا يجب مُعاملتهم كأطفال مجرمين بالفطرة أو السَّليقة.

* لابدَّ أن يُقدَّم لهم أساتذة الطب النفسي والأخصائيون النفسيون والاجتماعيون الإرشاد والتوجيه والرِّعاية.

* أنْ نوفر لهم عديداً من الندوات والمُحاضرات الدينيَّة،حيث يلتقي فيها هؤلاء الصِّغار مع رجال الدين ليعلِّموهم أمور دينهم ودنياهم،ويغرسون في نفوسهم المُثُل العُليل والقيم الدينيَّة والأخلاقيَّة المستقاة من شرائع ونواميس الأديان السماوية.

* أنْ نوفر لهم رحلات ترفيهيَّة وتثقيفيَّة علي مستوي عالٍ.

* أنْ يتعلَّموا مهناً عمليةً كالنجارة والسَّباكة وأعمال الدهانات وغيرها،حتى يكتسبوا عملاً شريفاً،علي أن تلتزم الدولة وقطاعاتها ومؤسَّساتها بتوفير فرص العمل لهم في شركاتها ومصانعها.

* أنْ تُقدِّم وزارة التربية والتعليم العون الكامل،لكي يستكمل هؤلاء الأطفال الصِّغار دراستهم التي انقطعوا عنها قسراً وجبراً.

♦ **ثاني عشر: الضَّعف العقلي وانخفاض مُعدَّل الذكَّاء :**

الضَّعف العقلي هو حالة نقص أو تخلُّف أو توقُّف أو عدم اكتمال النموِّ العقلي،يولد بها الفرد أو تحدث في سنٍ مبكِّرةٍ إمَّا لعوامل وراثيَّة أو مرضيَّة،تؤثِّر علي الجهاز العصبي للفرد،ممَّا يؤدي إلي نقص مُعدَّل الذكَّاء.

ولمَّا كان الطفل المُصاب بحالة الضَّعف العقلي يجد صعوبة في التوافق الاجتماعي من حيث نقص الميول والاتجاهات..فإنَّه يقع تحت تأثير الأطفال الأذكياء والأكبر منه سِناً،والذين قد يوجِّهونه إلي السَّرقة،لذلك يستلزم من الآباء والمُرَبِّين أن يقدموا لمثل هؤلاء الأطفال العلاج الطبي والتأهيلي اللَّازم،وتصحيح أي سلوك خاطئ أو مضطرب يقومون به،مع حمايتهم من استغلال الآخرين لهم.

❁ حينما يعتاد الأطفال السرقة :

قد تكون السَّرِقة سلوكاً عارضاً،سرعان ما يزول إذا اتبع الآباء والأمهات والمُربُّون والمُربيات نهجاً تربويّاً قويماً وسليماً في علاج المشكلة عند بدء ظهورها،وقد لا يهتم الآباء أو المُربُّون كثيراً عند ظهور أعراض هذه المشكلة،فيتأصَّل الدَّاء،ويستفحل وتنشأ الخطورة الحقيقية حينما يعتاد الأطفال السَّرِقة،لتصبح عندئذ من مكونات سلوكهم.

علي أن هناك فئة من الآباء أو الأُمَّهات يقفون موقف الدفاع،ينفون عن أطفالهم تهمة السَّرِقة،رغم كُلّ الأدلَّة المنطقيَّة التي تثبت بالدليل الدامغ ارتكابهم لها،وهم في ذلك لا يجرؤون علي بحث المشكلة بحثاً موضوعياً بعيداً عن التحيُّز للوصول إلي الحقيقة،بل إنَّ أسهل السُبُل لديهم هو إنكار وقوعها أصلاً.

والبعض الآخر من الآباء أو الأُمَّهات يُذهلهم ويطير بعقلهم أن يُدمغ أطفالهم بسلوك السَّرِقة، فيلجأون إلي العنف والقسوة والضَّرب تجاههم،ومن الآباء مَنْ يسرف في إسداء النصائح العقيمة، ومحاولة غرس القيم الدينيَّة والخُلقيَّة غرساً فاتراً،بلا فائدة.

ونقرِّر أن موقف الآباء والأمهات لا ينبغي أن يقتصر علي استقصاء الحقيقة وتقديم النُّصح فحسب،بل ينبغي أن يكون إلي جانب ذلك،موقفاً يهتمُّ بالبواعث والدوافع الحقيقية،التي أدَّت إلي مثل هذا السلوك،حتى يمكنهم التوصل إلي الحلول المناسبة،التي من شأنها أن تقي الطفل مغبة سلوك السَّرِقة هذا.

❁ تنمية مفاهيم الملكية عند الأطفال :

يشعر الطفل بالحاجة إلي الامتلاك في سنٍ مبكِّرةٍ،وهذا الشعور هو شعور طبيعي،ولكن من الآباء مَنْ يُهمل ذلك فلا يكاد يُفرِّق بين ما يمكن أن يملكه الطفل أو ما لا يملكه،وأحياناً كثيرةً يقع الآباء في أخطاء تقليديَّة،والتي كثيراً ما تتسبَّب في مشكلاتٍ سلوكيَّةٍ بحيث يشتروا لُعبةً واحدةً ليلعب بها أكثر من طفل،ظنّاً منهم أن هذه وسيلة مثالية لتعليم الأطفال الإيثار والتعاون بدلاً من الأنانيَّة،وهم بذلك يُجانبهم التوفيق؛لأنَّ الطفل لم

يعد يُفرِّق بين خصوصياته وخصوصيَّات غيره.وعلي ذلك فإن تشجيع الآباء لشعور الطفل بالملكيَّة ـ غير المُبالغ فيها ـ يُساعد في غرس الاتجاهات الإيجابيَّة نحو احترام ملكيَّة الغير،بل ويُنمي فيهم اتجاهات سلوكيَّة رائعة نحو الأمانة.

والأطفال في غالبيتهم يدَّعون ملكيَّة أشياء لا تخصهم،ولكن مع تطوُّر النمو،يستطيعون أن يدركوا ما يخصُّهم وما لا يخصُّهم،ملكيَّتهم وملكيَّة غيرهم،ذلك لو أن الآباء اعتادوا علي شرح أنَّ الاعتداء علي ملكيَّة الغير تحت أي مُسَمَّي،وبأي تصرُّف إنَّما صفة سيِّئة مستهجنة،وعادة قبيحة غير مستحبَّة،وإنَّها تُسَمَّي في كلّ الأحوال « سرقة ».

ولذلك..فيجب علي الآباء والمُربّين عدم تبرير موقف الطفل،الذي يستولي علي حاجيات الآخرين ـ فلا يراعي بذلك حقوق ملكيَّة الغير ـ علي اعتبار أنَّه ما يزال طفلاً صغيراً،أو أنَّ ما يأخذه إنَّما هو من أخ أو قريب وليس من الغرباء ! إنَّ هذه المبرِّرات إنَّما هي مبرِّرات واهية،وعنصر التسيُّب فيها أكبر من عنصر الضبط؛لأنَّ الطفل يأخذ في تعميم هذا السلوك فما يفعله داخل المنزل يفعله خارجه،وما يحصل عليه بداخله يُريد الحصول عليه خارجه أيضاً.

ولعلَّ من أهم القواعد وأُسس تكوين الاتجاهات الإيجابيَّة نحو الأمانة واحترام ملكيَّة الغير،هو احترام حقوق الطفل بما يملكه من أدواتٍ أو لُعبٍ،بحيث تُترك له الحُرِّيَّة في الاستمتاع في استخدامها بقليلٍ من التوجيه بين الحين والآخر،ولا نغالي في القول إذا أكَّدنا علي ضرورة أن يكون لكُلِّ طفل ملابسه الخاصَّة وكذلك لُعبه،وكتبه،وفراشه،وأدوات نظافته ومائدته،فلا يتصرَّف فيها أحدٌ إلَّا بإذنه وموافقته.

❁ تنمية سلوك الأمانة عند الأطفال :

يري«جان بياجيه» Jean Piaget بعدما تمكَّن من دراسة النمو الخُلقي عند الأطفال:

* أنَّه يحدث تطوُّر في مفهوم الأمانة عند الطفل،فبعد أن كان الطفل لديه مفهوم جامد عن الأمانة،يتمثَّل في تطبيق القواعد،بصَرْف النظر عن أيّة اعتبارات أخري أو ظروف محيطة بالموقف،نجده مع التطوُّر الخُلقي يبدأ في إدخال الظروف والملابسات المُحيطة بالموقف في تقديره واعتباره.

* يحدث تناقض في طاعة الطفل للوالدين،إذا كانت تتعارض مع إحساس الطفل بالأمانة،فإذا كان الطفل في أوَّل المرحلة ينحاز في اتجاه والديه،فإنَّ هذا الانحياز يتناقص حتى يكاد يتلاشي،وينحاز الطفل في الثانية عشرة من عُمْره إلي ما يعتقد أنه أمين.

ينتهي"بياجيه"إلي أن هناك ثلاث فترات في نموَّ معني الأمانة عند الطفل،هي كالتالي:

* **الفترة الأوَّلي:** وتستمرُّ حتى سن السابعة أو الثامنة،وفيها تكون «الأمانة » حسب ما يري الكبار (الممثلين في الوالدين والمُربّين).

* **الفترة الثانية**: تمتدُّ من الثامنة إلي الحادية عشرة،وهي مرحلة المساواة التي يطبق فيها الطفل القواعد كما هي.
* **الفترة الثالثة**: وهي العامين الحادي والثاني عشر،حيث يطبق الطفل قواعد «الأمانة» مشفوعة بتقدير ملابسات الموقف.

..وعلي ذلك فهناك بعض الملاحظات المهمة،التي يجب أن تتبع في غرس وتنمية سلوك «الأمانة» في وجدان الطفل،وهي:

* يجب أن يُدرك الآباء أنَّه قبل تكوين اتجاه«الأمانة»،لابدّ من حدوث اعتداءات من الطفل علي ملكيَّة الغير،وهذا أمر طبيعي يجب أن يُقابله الآباء بالمرونة إلي أن يتعلَّم الطفل أساليب التعاون من (أخذٍ وعطاءٍ)،كما يجب عليهم عدم التهويل؛فيقابل الآباء ذلك بالضَّرب والإهانة،كما أنَّه من الخطأ الدفاع عن هذا السلوك،فكلا الأسلوبين لا يُساعد علي تكوين اتجاه «الأمانة».
* خلق شعور الملكيَّة لدي الطفل بأن نُخصِّص للطفل مقتنياته الخاصَّة،وإعطاء الطفل مصروفاً يومياً،يتناسب مع عُمْره ووسطه الاجتماعي الذي يعيش فيه.
* التسامح قدر الإمكان في حالات السَّرقة العابرة،والتي تحدث بلا دوافع نفسيَّة،كذلك عدم دفع الطفل بالاعتراف بالسَّرقة حتى لا يعتاد الكذب.
* عدم مُعايرة الطفل أمام الآخرين في حالة السَّرقة،حتى لا يشعر بالمهانة والنقص،علماً بأن الطفل لو أحسَّ بمشاعر المحبَّة والحنو والعطف والرعاية..فإنَّه لن يلجأ إلي السَّرِقة.

❁ كيف نقي أطفالنا من داء السرقة :

* ممَّا لا شكّ فيه أن الوسط الأسري أو المدرسي أو البيئي الذي يتوفَّر فيه الدفء العاطفي والحُبّ والأمن والتوازن في المعاملات والمرونة في التربية يُساعد علي وقاية الطفل من الانحراف السلوكي،الذي يجد له متنفساً عن طريق السَّرِقة كمثال.
* ينبغي توفير ضروريات الأطفال من ملابس خاصَّة وأدوات ولُعب وغيرها،حتى لا يشعروا أنَّهم أقلّ من الآخرين،فيلجأون إلي السَّرقة لتعويض النقص.
* حماية الطفل المُفْرِطة والمُبَالغ فيها،والتي تُعيقه عن الاختلاط السَّوي مع أصدقائه تُساعد علي السَّرِقة؛فلذلك يجب أن ننمِّي فيه الحسَّ الاجتماعي للاندماج وسط جماعة سواء في المنزل أو الحي أو المدرسة.
* احترام ملكيَّة الطفل الخاصَّة شيءٌ ضروريٌ مهم،ومن هذا المُنْطَلق لابدّ أن نُعلِّمه كيف يحترم ملكيَّة الآخرين،فإذا حدث أنْ أعتدي الطفل علي ملكيَّة أخيه،فلنأخذ منه إحدى مقتنياته ونعطيها لأخيه،فإذا ثار واعترض،علمناه أنَّه كما يثور لأنَّنا اعتدينا علي ملكيَّته؛فإنَّ أخاه سيثور ويعترض أيضاً لأنَّنا اعتدينا علي ملكيَّته،وبهذا الدرس العملي سيتيَّقن أنَّه من غير المستحبِّ الاعتداء علي ملكيَّة الآخرين.

* مداومة التوجيه والإرشاد وغرس القيم الدينيَّة والخُلقية في وجدانه،مع تقديم النموذج والقدوة الطيبة أمامه،فلا ننهي عن سلوكٍ يقترفه أو يأتي به،ثُمَّ نأتي به نحن الكبار.

* عدم اتهام الطفل بالسَّرقة،ونحذر من خلع ألقاب علي الطفل من شأنها أن تقضي علي سلامة صحَّته النفسيَّة،كأن نقول له مثلاً:« يا لص »،أو« يا سارق ».

* كُلّ طفل ينموّ تكون لديه طاقة ذهنيَّة وجسمانيَّة هائلة،يجب أن نستغلها ونوجِّهها إلي مشاركته في الأنشطة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والفنيَّة والرياضيَّة،حتى ننمِّي مواهبه ونخلِّصه من طاقاته الزائدة،ونقضي علي مله وضجره وشعوره بالفراغ المميت.

* يجب ألَّا نُسرع بإلصاق تُهْمَة السَّرِقة قبل التحقُّق من ذلك،وأن نناقشه بموضوعيةٍ وهدوء حول سلوكه،وأن نبصِّره بمواطن الصَّواب والخطأ.

* لابدّ من دراسة الدوافع التي دفعت الطفل دفعاً إلي السَّرِقة،فهل السَّرِقة عابرة أم متكرِّرة؟ وهل هو يُقلِّد الآخرين عندما يسرق ؟ وهل السَّرِقة تؤدِّي وظيفة نفسيَّة في حياة الطفل كتغطية فقدانه من الحُبِّ أو الحنان أو الرعاية ؟ أم أنَّ لها وظيفة اجتماعيَّة كالتباهي والتفاخر أو إثبات الذَّات والزهو؟ ..فإذا ما وضعنا أيدينا علي موطن الدَّاء الحقيقي،أمكننا وضع العلاج الناجع والمفيد.